الشيخ طاهر الجزائري

فجمع مجمعنا العلمي لاول نشأته بعضو عظيم من اعضائه ومفخر من مفاخر هـذا الشرق العربي وامام نابغة بعلوم الدين والدنيا استاذنا وحامل لواء المعارف في ديارنا المرحوم الشيخ طاهر الجزائري .

قضى نحبه في اليوم الرابع عشر من ربيع الثاني ١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فعظم نعيه في اندية العلم والادب واضطرب تلامذته ومريدوه واحبابه وعارفو فضائله بخطبه الجلل يبكون ويرثون من كان الحركة الدائمة في بث المدنية والعلم الصحيح ، من صرف دقائق عمره في انهاض الامة من طريق العلم والتهذيب ، وسعى في حل قيود التقليد الاعمى وحارب عصبة التعصب الذميم .

ولد طاب ثراه في دمشق سنة ١٢٦٨ هـ وكان والده الشيخ محمد صالح السمعوني الجزائري من فقهاء المالكية وتولى الفتيا بمذهبه في هـذه المدينة بعد هجرته من الجزائر واقرأ كثيراً من الطلبة ولما نشأ ابنه درس في مدرسة الجقماقية وتخرج باستاذه الشيخ عبد الرحمن البوشناقي ثم اتصل بعظيم من عظماء العلماء الصالحين في عصره المرحوم الشيخ عبد الغني الميداني ولازمه الى ان وافاه الاجل .

ولم يكن استاذه من الحشوية الذين يسدون في وجوه مريديهم طرق البحث والنظر بل كان عالماً بحاثة رائده العقل والعلم .

فنشأ تلميذه على افضل الاخلاق واصح المبادىء العلمية لم يمارس التافهات ولا شغل قلبه بالبدع والضلالات فكان درسه عليه درساً حقيقياً يراد منه الرجوع بالشريعة الى اصولها والاخـذ من آدابها بلبابها ومحـاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين ولا من يجرؤ على انكارها . فجمع الى سلامة الفطرة وقوة العارضة جودة النظر واخذ

---

(١) من مقالة لنا في ترجمة فقيدنا العزيز نشرت في المجلد السادس والخمسين من مجلة المقتطف

النفس بالعمل فجاء منه بالدرس والتحقيق فيما سوف المي اشبه الاوائل في هديه وطريقته وتمثل بالاواخر في نظره ودرسه وتسمحه .

لقي الاستاذ مقاومة من اعداء الاصلاح الجامدين وكانوا كثيراً ما يستعينون عليه بالقوة الزمنية فيشكونه الى الحكام ويسودون صحيفته عندهم ولكن كان سلطانه اكبر من سلطانهم كان سلطانه العلم والاخلاق فكان بحجته وعلمه يتوى على خصومه ويطرح سعاياتهم جانباً فكان الحكام في جنب شيخنا على الاغلب توقيراً لعلمه واعجاباً بفضائله خصوصاً وهو بعيد عن ان يظاهرهم لمغنم يصيبه وغرض دنيوي يناله اذ كان من ازهد الناس في حطام الدنيا ومظاهر الابهة والرفعة والرفاهية .

تولى التعليم لاول نشأته في المدرسة الظاهرية الابتدائية ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق واعيانها للقيام باعمال علمية دخل في عداد اعضائها وكان على حداثة سنه من اكبر العوامل فيها ثم اصبحت هذه الجمعية دائرة معارف رسمية فعين الاستاذ مفتشاً عاماً للمدارس الابتدائية التي انشئت على عهد المرحوم مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥ وهنالك ظهر نبوغه وعقله في تأسيس المدارس واستخلاصها من غاصبيها ووضع برامجها وتأليف الكتب اللازمة لها . وكان فقيدنا يقوم بكل هذه الاعمال ويزداد كل يوم علماً ومعرفة ودؤوباً على العمل وتفانياً في ترقية العلوم وتحسين الملكات وصقل الاخلاق والعادات .

وعلى ذلك العهد ايضاً انشأ بمعاونة بضعة من اصدقائه دار الكتب الظاهرية فجمع فيها ما تفرق من المخطوطات الجليلة في عشر مدارس واتى ممن يستحلون اكل الاوقاف مقاومة واي مقاومة . ولا تزال هذه الدار اثراً من آثاره الكثيرة في سورية وقد انشأ مثلها في القدس جمع كتبها من آل الخالدي وسماها « المكتبة الخالدية » وهي معروفة مألوفة الى اليوم . ومن جملة اعماله العلمية تدريس العلوم العربية ثم الدينية في المدرسة الاعدادية بدمشق مدة سنين .

وكان مغرماً باقتناء المخطوطات وهو ابن سبع سنين يبتاع منها الدشوت والاوراق المبعثرة وغيرها من الاسفار والصحف ويقرأها ويحتفظ بها حتى جمع منها خزانة حافلة بالنوادر باع قسماً عظيماً قبل ان يهجر دمشق الى القاهرة سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) فراراً

من ظلم العهد الحميدي وظلامه وباع القسم الآخر في القاهرة الى دار الكتب السلطانية والى الخزانتين التيمورية والزكية وبقي نحو خمس عشرة سنة من عمره الاخير يعيش من كتبه واستنكف عن قبول الرواتب والمناصب . وكان يعد الرتبة كل ارتبة خدمة الامة بتشويقها الى اقتناء الكتب ومطالعة الصحف والمجلات والسهر على اسعادها وانهاضها وكم من عامي اصبح بتعاليمه متعلماً في جلسات قليلة جلسها في حضرته وسماع مجالسه ومحاضراته . وقل ان يوجد رجل من ادباء هذا العصر وعلمائه في بلاد الشام لم يستفد من علم الاستاذ وتجاربه ان لم يكن مباشرة فبالواسطة وتلامذته الذين انتفعوا به في شبابه فقط يعدون بالمئات واكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكومة والادارة ومنهم المؤلفون والصحافيون والمتأدبون والنابهون .

وكانت له اساليب خاصة في بث الافكار الصحيحة فهو ولا مراء داعية علم حقيقي متفان في نشر العلم والتهذيب والجمع بين القديم السليم والحديث المفيد بحيث يصح لنا ان نقول انه كان ملكاً بعلمه وعقله وبعد همته ملكاً في تدينه واخلاقه ملكاً بعزة نفسه وترفعه عن الصغائر وله اثر في ناشئة الشام ومصر لا يؤثره مائة عالم محنك لانه كان عاملاً بعلمه اختط لنفسه منذ نعومة اظفاره خطة وسار اليها وداً الناس الى انتهاجها ولم يحد عنها الى آخر ايام حياته واخلاصه لدينه وقومه آية الآيات ونموذج مجسم من الغرام بالفضيلة .

تدر جداً ان جاء في المتأخرين من علماء المسلمين اي في عصور الانحطاط العلمي رجل وعى في صدره من العلم ما وعاه صدر الشيخ طاهر الجزائري فكان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل وما يتشعب عنها منقطع القرين في تاريخ العرب وتراجم رجالهم وسلاسل اعمالهم ومناقبهم ومناقشاتهم ومناظراتهم فهو في ذلك الحجة الثبت ، ساعده على ذلك قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما تمر به مهما طال العهد . قرأ جميع الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب بالعربية او ترجمت من اللغات الاوروبية اما المخطوطات التي طالعها فتقرب من المطبوعات ان لم تكن اكثر وقل ان يدانيه احد في معرفة المظان ولذلك كان يسهل عليه التأليف في اي موضوع اراد وقد يؤلف الكتاب الممتع في بضعة اسابيع . ويعرف السياسة وما يلزم لها معرفة عالم غربي فلا يكاد

يصدق جليسه خصوصاً اذا كان غريباً ان الذي يتكلم معه شيخ من شيوخ المسلمين فكان يلبس ثياباً رثة بالية ويتزيا بزي السوقة والعامة في هذه البلاد ويعرف الغرب ومدنيته معرفة عالم اوروبي او اميركي .

وكان اماماً في علوم الادب كلها يحسن من اللغات العربية والتركية والفارسية ويعرف مبادئ الافرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والزواوية . كاتب مترسل شاعر مجيد اذا صفا ذهنه تفصح محاضرته والا فيعتريها شيء من اللهجة المغربية وله تعبيرات خاصة تخلو من فمه وهو رقيق العشرة مفطور على الرحمة يتصدق في السر ويصلي الصلوات في اوقاتها يقوي الامل ويرفع غشاوة الوهم ، يكره الخيال ولا يشتغل بالمحال ، حسنة من حسنات الاقدمين ممزوجة بروح جديدة معتدلة يكره التعصب ويغضب لمن يحط من قدر العاملين والعلماء الاقدمين في الصدر الاول يمزح احياناً من الجد ولكنه لم يعهد عليه انه نطق بهجر او فحش او عمد الى لهو او استعمل ما ينافي الادب والحياء ، لم يتزوج حياته لان ليله ونهاره يصرفهما في الدرس والبحث ثم في السياحة والتنقل وحج مرة وزار احد معارض باريز مرة وقد اتسع صدره لفروع المدنية الحديثة الا الموسيقى والتمثيل فلم يكن له حظ فيهما لانهما خرجا عما وضعاله واصبحا في رأيه للصبوة والتلهي .

وله زهاء عشرين مصنفا جليلاً منها ما الفه في صباه للمدارس الابتدائية ومنها ما الفه بعد لاغراض علمية خاصة ومن كتبه الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية وقصص الانبياء ومد الراحة لاخذ المساحة وكتاب في الحساب والحكمة الطبيعية في الطبيعيات ورسالة في النحو واخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب تسهيل المجاز الى فن المعمى والالغاز وشرح رسائل ابن نباته وارشاد الالبا الى طريق تعليم الفبا ورسالة وجد اول في الخطوط وكتاب توجيه النظر الى علم الاثر وكتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن وهو مقدمة تفسيره الكبير الذي لم يطبع ويدخل في بضع مجلدات . ومقدمة معجم اللغة الذي الفه ولم يطبع وهو تام . ومن كتبه التقريب الى اصول التعريب . ومختصر ادب الكاتب لابن قتيبة والالمام باصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومقاصد الشرع وغير ذلك من الكتب والرسائل والمقالات والتعليقات هذا عدا تذكراته البالغة عشرات من المجلدات فيها وصف الكتب

والرسائل المطبوعة والمخطوطة التي طالعها وبعضها محفوظ جدير بالطبع .

هذه تآليف فقيدنا . وذلك عدا الكتب القديمة التي احياها بالطبع وعلق عليها وصححها وحث على طبعه ونظر فيه نظرة اجمالية ولم يذكر فيه اسمه وعدا المجلات التعليمية المدرسية والاخصائية التي نشرت بايعازه وارشاده في سورية ومصر .

ولما زاد مرضه في مصر بعد مقام اثنتي عشرة سنة فيها مكرماً محترماً من رجال العلم فيها قفل راجعاً الى دمشق قبيل وفاته بثلاثة اشهر فعين عضواً في المجمع العلمي ومديراً لدار الكتب العربية التي كان انشأها وحضر الجلسات في الاوقات المعينة الا ان المرض كان قد استحكم منه وهو مرض الربو فناداه ربه الى جواره فدفن في سفح قاسيون وقد اقيمت له حفلة يوم الاربعين من وفاته مشى خاصة تلامذة الفقيد واعضاء المجمع العلمي من دار المجمع العلمي في المدرسة العادلية تتقدمهم صورته الشمسية مكبرة حتى وافوا دار مدرسة الحقوق في المرجة وهناك تبارى مريدوه واصدقاؤه في تأبينه ورثائه وترجمته وفاض معين المنثور والمنظوم في استمطار الرحمة على من كان فريد عصره في هديه وعلمه وهمته وروحه .

محمد كرد علي